نازك الملائكة

الأديب والمجتمع

لا بد لنا اذا أردنا ان نجدد صلة الاديب بالمجتمع العربي من أن نوضح ان بين ايدينا عنصرين اثنين هما المجتمع والاديب . اما المجتمع فهو هيئة معنوية لا تلمس باليد ولا تدرك بالنظر وانما يشخصها الفكر المتخيل ، وهذه الهيئة من الضخامة والقوة على ما نعلم ، ولكنها ،على روعتها وسعتها ، تبقى قابلة لان تلون وتدار ويؤثر فيها، وأما الاديب ، فهو مثل زملائه المصلح ورجل الدين والعالم ، قادر على التوجيه والاشراف . لانه الباني والمحرك للمجتمع ، بينما المجتمع هو المبني المحرك ، والصانع في نظر الفكر المدرك اهم من المصنوع كما ان العلة اخطر من المعلول . وعلى ذلك آثرت ان ابدأ بتعيين ابعاد الاديب ومستواه وآفاقه ، الروحية والفكرية ، منتقلة بعد ذلك الى تحليل ملامح المجتمع العربي وتعيين نقائصه .

ان الحديث عن مكان الاديب في المجتمع ينبغي ان يرتكز الى معنى قولنا « أديب » . وليس يخفى ان هذا اللفظ قد اتسع واصبح مثقلا بمعان جانبية غير قليلة . ولسوف نعين هذه المعاني بالقاء نظرةعلى المدلول الشائع اليوم لكلمة « أديب » .

ان المفهوم الدارج لكلمة الاديب يهتم بالشكل اكثر مما يهتم بالمضمون . فما نكاد نذكر الاديب حتى يتبادر الى الذهن العام انه ذلك الذي ينظم القصائد او يكتب القصص او يؤلف المسرحيات . فكل من صنع هذا سمي اديبا . ولا يكاد يتبادر الى الذهن مطلقا ان للاديب مكان البناء في المجتمع فهو يشيد ويقيم الاسس ويحددالاطر. وما القصيدة والقصة والمسرحية الا انماط شكلية يصوغ الاديب فيها افكاره . وكانت النتيجة ان كثيراً من ادبنا اصبح بلا مضمون اجتماعي مستفاد . وحسب كثير من الادباء ان انماطهم بهياكلها المترفة المعقدة تغنينا عن المدلول الاجتماعي الذي يحرك القيم والمعاني .

ومن تفريعات هذا المأخذ ان كلمة الاديب قد افرغت افراغا من معناها الخلقي والروحي وقصرت على معنى بلاغي فاصبح الاديب يعني من يكتب بأسلوب جميل فيه بلاغة التعبير وجمال الصورة والرمز .وبذلك اصبح ارتكاز الكلمة تعبيريا لا روحيا . وقد استشهد احد ادبائنا متحمسا بعبارة للفيلسوف الايطالي بندتو كروتشه نصها : « الدعوة الى الفضيلة ليست مهمة الفن ، بل مهمة الاديان وعلم الاخلاق » . والواقع ان كروتشه يخلط هنا بين الدعوة الوعظية الى الاخلاق بالاساليب المباشرة وهي مهمة الاديان ، وبين الاخلاقية المضيئة التي يشف الادب عنها دونما وعظ ، وهي قمة الجمال في الادب والفن. ولو تأمل المتأمل لما وجد تعارضا بين علم الجمال وعلم الاخلاق بل هما كل واحد لا تجزئة له .

والواقع المؤسف ان لفظ الاديب عندنا قد خضع لانحراف النظرية المجردة التي تندرج تحت عنوان « الفن للفن » فالاديب يعتبر اليوم صانع الجمال ومرقرق الرحيق في الالفاظ المسحورة لا يسأل عن الهدف الانساني ولا عن المثال الاخلاقي . قال نزار قباني قبل حزيران ١٩٦٧ « الشعر زينة وتحفة باذخة كآنية الورد » ومعنى هذا الا نرجو نفعا اجتماعيا من الشعر . والواقع أن الورد في الطبيعة ليس خاويا من النفع . وانما يتفتح الزهر لينتج البرتقالة الحلوة المغذية والوردة التي لا تأتي بثمرة ملموسة تنفع غذاء للنحل والطيور والفراشات . وما من شيء في الطبيعة الا كان له قبل جماله نفع ثابت . وحاشا للانسانية أن ترضى لاديبها الموهوب أن يهدر طاقته الفكرية في كتابة صفحات جمالها عقيم . وهل يرضي ضمائرنا ان نكتب من الادب ما هو حلية فارغة وترف بينما اهلنا العرب يبادون في الارض

المحتلــة ؟

فاذا رفعنا لفظ الاديب فوق هذه المآخذ استطعنا ان نخلص الى الاديب الحق . وقد سبق ان اشرنا الى انه انما ينتهي الى طائفة من الناس نستطيع ان نسميهم بالخواص وهذه الطائفة تشمل مع الاديب ، الحكيم والمصلح والعالم ورجل الدين . وهي تتميز على عامة الناس بخمس صفات اساسية نحصيها في ما يلي :

(الاولى) ان هؤلاء قوم يعلمون اي يتقنون العلم بما كرسوا قلوبهم وحياتهم للدراسة ، وبما هذبوا عقولهم ووسعوا آفاقهم . فانما الادب تخصص وتفرغ لطلب العلم وليس باديب من قرأ خلاصات ومختصرات من الجرائد والمجلات هي حصيلة علمه .

والصفة (الثانية) ان هؤلاء قوم يعملون بما يعلمون . فلا نفع في عالم يعلم الناس المبادىء والقيم ثم لا يعمل بها هو نفسه ولا يكون مثالا مجسدا لها . قال تعالى في كتابه الكريم «اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ، وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون ؟» .

والصفة (الثالثة) انهم يملكون الاستقلال الفكري الكامل عن التيارات التي تجرف المجتمع فلا ينقادون لها كما ينقاد العوام وانما يستشرفونها من أعلى ويحكمون عليها ، وبذلك يوجهون المجتمع . فاما العامة فان ما هو شائع عندهم لا جدال فيه ولا يجرؤون على مخالفته. واما الخواص فيسائلون انفسهم عن أسباب الظواهر الاجتماعية ويرفضون منها ما خالف العقل والمصلحة الانسانية .

والصفة (الرابعة)انهم يزدرون الشهرة والمناصب كل الازدراء وانما يعيشون للعلم والعمل ، يقولون ما يعتقدون به وان جاءهم بالاستنكار ويستطيعون ان يجابهوا الجمهور بما يكره ، كما يعطي الطبيب البارع جرعة دواء مرة لمريض مشفٍ . وعلى هذا الاساس يكون الاديب كالجندي في المعركة لا يبالي ان يقتل في سبيل الحق. اما الاديب الذي يداهن الجمهور مداهنة رخيصة ليكسب الثناء والشهرة من اقرب السبل فهو خائن لرسالته . وانما يعمل الاديب بالحديث النبوي :« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » .

والصفة (الخامسة) ان طائفة الخواص هذه يملك أفرادها ذهنا مشعا له ومضات وسبحات ورؤى تراهم يتميزون بنوع من البصيرة المضيئة التي تنير لهم المستقبل فيرونه . انهم يمتلكون حدسا ، روحيا ولهم لوامس عقلية يدركون بها ما سيقع قبل وقوعه وقد يحذرون قومهم مما سيأتي ويرفعون أصواتهم بالنهي والتنبيه .ومعنى ذلك ان الاديب ، كرجل الدين ، ورجل العلم والمصلح ، انما هو مرحلة نحو النبي . وليس في حكمنا هذا انتقاص للنبوة وانما النبي ملهم ينطقه ربه وليس بشرا عاديا ، ولكن النبوة لها صفات كثيرة وقد يملك الانسان المتميز بعض هذه الصفات : صفة او صفتين . اما مجموع الصفات فلا يملكها الا نبي .

والادب بالمعنى الحق احساس عميق بما هو كائن وبما سيكون، يأتي من تهذيب النفس وقهر شهواتها الدنيا ويأتي من الدراسة والعمل ، والاطلاع على احوال الامم واحداث التاريخ وملاحظة المجتمع. ولسنا ننسى ان الاديب ، بدء ، يملك موهبة اللغة وتوقد العاطفة وشعلة الذهن المفكر . فكل هذه المزايا والمكتسبات ترفع الاديب الى مرتبة الموهوب الذي يوجه ويقود ويؤثر في سير التاريخ .

هذه الصفات الخمس شروط وجودها لدى كل اديب يطمح الى ان يكون له دور في بناء المجتمع . وقد يكون من نافلة القول ان نشير الى ان اغلب ادبائنا المعاصرين لا يحققون هذه الملامح ، ولذلك لا نرى لهم تأثيرا فعليا في توجيه المجتمع العربي . وما زال الادب عندنا مسربلا باسماله الجمالية والبلاغية المحضة . فقد بقي اغلب ادبائنا منقادين للتيارات الشائعة في المجتمع يمثلونها ولا يرتفعون فوقها. وانما الصفة العليا للاديب ان ينفصل بذهنه عن كل ما هو شائع في المجتمع من ظواهر ، فاذا استقل عنها استطاع تشخيصها وتبيين اسبابها ، وجاء بامثلة لها من الحياة وناقشها مناقشة علمية لا تعصب فيها ولا غضب ، وانما موقف الاديب في هذه الحالة هدوء مدرك وهيبة وعمق. كما يتفقد الانسان الخاشع نفسه ويلتمس عيوبه ليصلحها ويرتفع فوقها .

ان الاديب بهذا المعنى هو الذي يصوغ القيم والافكار والمبادىء التي تبني المجتمع تاركا لرجل الدولة مهمة التطبيق . وليس يخفى ما لهذا الدور من قيمة في بناء المجتمعات . فانما الكيان الاجتماعي فكر في حالة تنفيذ . ولا يكتفي الاديب ببناء المجتمع وانما يبقى جرس الخطر الذي ينذر بما في الاسس من تخلخل وتصدع . وما يقوله مثل هذا الاديب يتحول الى عمل . لان الحقيقة تشع والحكمة تتلألأ وتنفذ الى العقول والقلوب مهما بنيت في وجهها السدود . وكلمة الحق لا بد ان تجلجل عاجلا او آجلا .

★ ★ ★

اما المجتمع العربي فان علينا ان نتبين ملامحه كما تبينا ملامح الاديب . واول ما يميز هذا المجتمع اليوم انه مجتمع في معركة، أو لنقل انه مجتمع معركة لان هذه المعركة تؤثر في اتجاهاته ودوافعه وحياته جميعا ، فهو متلبس بها مدفوع اليها واقع فيها . ولا خلاص له منها الا بأن يواجهها مواجهة كاملة ويفرغ منها . وانما يجد الاديب بين يديه مجتمعا في حالة خطر وذلك يغير رسالة الفكر ويلونها ويجعلها رسالة خاصة في ظروف خاصة .

واحسب أن في موقفنا الفكري خطأين اثنين :

(الخطأ الاول) اننا في استعدادنا للمعركة ننسى أن علينا خلال ذلك ان نبني المجتمع في الوقت نفسه . فان خوض المعركة وبناء المجتمع عمليتان مترابطتان لا يصح ان نقدم ايا منها على الاخرى . فاذا انشغلنا بالمعركة وأرجأنا قضايا المجتمع حتى ننتصر كتبنا على انفسنا الهزيمة لا سمح الله . لاننا بذلك نصنع صنع انسان له مريض يهتم باعطائه الدواء ويؤجل مسألة تغذيته الى ما بعد شفائه، فان المريض يموت ولا ينفع فيه الدواء .

والخطأ (الثاني) في موقفنا اننا نكل التخطيط للمعركة للجيش وحده تاركين هيئة المجتمع معزولة مشلولة ، فالاديب يتصايح وحده فلا ينتفع برأيه احد . ورجل العلم ينبه ويشرح وحده فلا يصغي اليه احد . ورجل الدين والاخلاق يحتج ويوجه دونما سميع ولا مجيب. والمهندس والمحامي والطبيب لا يستشارون في شيء . وذلك خطأ جسيم نداركه عدونا في فلسطين حيث تتعاون اجهزة الدولة كلها في مواجهة المعركة ، ولذلك غلبونا في حزيران . ان لهم ذهنا علميا فلا ينبغي ان نواجههم بذهن عامي .

وبعد ، فيبدو لي ان في المجتمع العربي اليوم مجموعة ظواهر فكرية خطيرة ينبغي للاديب ان ينبه اليها في سبيل بناء هذا المجتمع، وساستعرض هذه الظواهر فيما يلي :

(الظاهرة الاولى) ومضمونها ان المثل والافكار الاجتماعية لا ترد المجتمع على شكل قيم يراد فحصها وتبينها وانما تداهمه مداهمة التيار العنيف الجارف . فتنزل بنا الفكرة الجديدة كما يتحدر السيل الدافق من قمة الجبل الى الوديان المجاورة مندفعا يجرف أمامه كل شيء لا يبقي ولا يذر . والتيار ، كل تيار ذو طبيعة هوجاء لا تعرف الاستقامة ولا المرونة ، فاذا غمرتنا الافكار باندفاعها كمن فيها معنى الطغيان ، فهي تشل الفكر وتخدر النفس . واذا طغت الافكار على المجتمع وسلبته قدرة التفكير فقد شخصيته وحيويته فاذا أردنا تبسيط هذا المعنى قلنا ان الناس اصبحوا يواجهون الافكار الادبية والاجتماعية مواجهة الأشل او المنوّم . تراه يصدّق كل ما يرى ويتقبل كل ما يسمع ، ويسلك سلوك من لا ارادة له . والمواطن العربي في المغرب او الحجاز او دمشق او القاهرة لم يعد منقادا لطبيعته الانسانية ، لان الفطرة السليمة تفرض على الانسان ان يتساءل عن اسباب الاشياء التي يقدم عليها ، بينما العربي اليوم

يسلك الدرب دون أن يسأل عن الداعي الى سلوكه فهو قد فقد طبيعة التفكير واصبح مسيرا . وخلاصة هذه الظاهرة ان الفرد العربي لم يعد يسأل نفسه «لماذا ؟» وانما يرى الظاهرة شائعة في المجتمع فينقاد لها دون اي اعتراض او مناقشة . واذا فقد الانسان الرغبة في ادراك الاسباب فتلك هي الطامة الكبرى في نظر كل متأمل .

وخير مثال نضربه لهذه الظاهرة في الحقل الادبي أن نزعة الغموض المسرف قد شاعت شيوعا عظيما في الشعر الحديث . ولو كانت ظروفنا النفسية والاجتماعية في الوطن العربي تبرر ان يلجأ الشاعر اليوم الى الغموض لقلت ان التعقيد القائل في اكثر هذا الشعر مبرر اجتماعيا بارتباطه بظروفنا الخاصة ، ولكن الأمر ليس كذلك . ومتى ينشأ الغموض ؟ انما جنح شعراؤنا في العقود الاولى من القرن العشرين الى شيء من الابهام في التعبير لانهم كانوا يعانون ارهاب حكومات استعمارية طاغية لا تبيح الهمسة الوطنية فاختنق شعراؤنا بعواطفهم وطلسموها وبرقعوها ليستطيعوا ان يتأوهوا بها. فكان ذلك تبريرا للغموض . ثم جاءت الحكومات الثورية الاشتراكية في غير قليل من البلاد العربية وطلع فجر الحرية فزال سبب الغموض ولم يبق له داع . ذلك فضلا عن أن هزيمتنا المريرة في حزيران قد وضعت الشاعر العربي في مواجهة الجمهور. يريد الشاعر ان يسير بالركب العطشان من الصحراء القاحلة الى حيث المياه والشجر والظلال . وصرخة الجهاد من طبعها ان تكون واضحة النبرة مستقيمة المعنى . لأن المجاهد يرى الطريق ويدرك أبعاده كلها ، ولا يمكن لمن يتخبط ان يصل الى ابواب القدس المحتلة . ان مدى الرؤية ينبغي ان يكون صافيا رائقا أمام أعيننا والا تهنا في الضباب . ونحن اليوم نحتاج الى الكلمة الواضحة ، لا تتعارض صراحتها واستقامتها مع ظلال الشعر وألوانه وموسيقاه والرموز فيه ، ولكنها تتعارض مع التيه والظلمة والصلبان التي نصلب عليها الظلال . ولست أريد بهذا الاساءة الى اخواننا الشعراء وانما احب ان تصل قوافيهم وكلماتهم الى هذا الركب العربي الذي يزحف ودماؤه تقطر دون ان تذهب أبياتهم بددا تذروها الرياح ولا يعيها قلب .

اما الظاهرة (الثانية) فهي من أخطر الظواهر التيجرفت المجتمع العربي ونعني بها الانقياد المطلق لما يأتينا من الغرب ، كل ما يأتينا منه من بضائع ووسائل حياة وقيم ومثل ومعتقدات ، فقد اصبح الفرد العربي منهار الفكر والروح بازاء هذا التيار ، يعتقد في صميم نفسه اننا اذا اردنا لانفسنا الحياة والتقدم فيجب ان نتبنى حضارة الغرب بأكملها دون اية مناقشة . وقد استنامت عقول الناس لفكرة طاغية مضمونها ان الغربيين أفضل منا في كل شيء . ان عقولهم تبدو للناس اكمل من عقولنا ، وحضارتهم اعظم من حضارتنا وهم المقلدون في كل امر . ولقد اصبح معنى المجتمع العصري عند عامة الناس كيانا يبنى على غرار المجتمعات الغربية لا نميل به مقدار شعرة . وبلغ من طغيان هذه الفكرة عند الفرد العادي اننا قلنا له ان هذه الفكرة لا تلائم حياتنا رد علينا فورا باننا رجعيون او سلفيون ، فاذا لم يقل ذلك لنا حرفيا قال في نفسه : «مالي ولهم ؟ انهم متأخرون لم تتفتح عقولهم على الحياة الحديثة» وهذه أخطر ظاهرة تداهم مجتمعا ما ، ولسوف تنتهي بنا الى انهيار شامل لسببين :

(الاول) لاننا ، ما دامت هذه فلسفتنا ، سنصير الى ازدراء كل ما هو عربي على اعتبار ان كل ما عند الغربي افضل من كل ما عندنا. وبهذا سنفقد شخصيتنا الحضارية ونتوقف عن اعطاء اي شيء الى الوجود . وتلك خسارة جسيمة . فان هذه البقعة من العالم قد اعطت الدنيا حضارة وفكرا وأخلاقا على مدى عصور طويلة ، فاذا فقدنا اليوم ثقتنا بانفسنا ذبلت شجرتنا السخية وانقطع عنها ماء الحياة وعدنا ذيلا للأمم الاخرى .

(الثاني) لان الغرب الذي نقلده اليوم يسير الى التفسخ والانهيار وموت الانسانية . وليس هذا الرأي لي انا وحدي وانما قال به قبلي مفكرون كبار في الغرب نفسه مثل أوزولد شبنغلر وأرنولد توينبي وآلبرت شفايتزر . فكل هؤلاء يأخذون على حضارة الغرب ما يجعلها تقف على شفا جرف . وقد تنبأوا باحتمال زوال المدنية الغربية اذا ما مضى الغرب في اتجاه المادية والفجور والحرية الفرديه المطلقة ، فاذا قلدنا هذا الغرب في كل شيء دون ان نلاحظ ظروفه وظروفنا كان مصيرنا الى انهيار مماثل وانما نستطيع لو شئنا ان نعطي الغرب القيم والمثل التي يزخر بها تراثنا العربي وبها يبنى المجتمع الاكمل وتنضج الحضارة ويرتفع الانسان .

وقبل ان نختم الحديث عن تقليدنا للغرب نأتي بمثال من حياتنا الواقعية . فقد دأب قومنا في السنوات الاخيرة على اقتباس طريقة الفرنسيين في تفخيم المخاطب المفرد باستعمال ضمير الجمع في خطابه . وهذا ، لو فكرنا فيه متجردين ، غير منطقي. فكيف نقول للواحد (أنتم) وللجماعة (انتم) ايضا ؟ ان هذا حين نتأمله منافض لما يقبله العقل . بل نقول للواحد (أنت) ونقول للجماعة أنتم كما يفرض منطق الاشياء . وتلك هي الطريقة العربية طريقة الفطرة السليمة التي تحرص على التمييز بين المفرد والجمع . ولقد ألفنا عبر تاريخنا أن نخاطب الواحد بضمير المفرد مهما بلغت عظمته حتى اننا لنخاطب الله تعالى فنقول له «لا آله الا انت سبحانك» نخاطبه بالمفرد ولا نعظمه الا بالمفرد . وكان الناس يخاطبون الرسول (ص) بالمفرد أيضا . وكان العربي يدخل على الخليفة ويقول له «انت» فلماذا اقتبسنا طريقة الغربيين في هذا العصر فرحنا نخاطب الواحد بضمير الجمع ؟ ولو كانت طريقتهم منطقية او كان استعمالهم أصح لغويا لكان الوجه في تقليدنا لهم ظاهرا . ولكننا أحرى أن نعطيهم طريقتنا وننهاهم عن هذه الفوضى النحوية . وهل صرنا من الهوان بحيث نترك الاصلح والاصوب لمجرد انه اسلوب آبائنا وأجدادنا ؟ وكيف يصح لنا ان نربك قواعد لغتنا ونهجر أسلوبنا فتنقطع الصلة بين تقاليدنا في هذا العصر وتقاليد عصورنا السابقة ؟ وبعد فلماذا لماذا يفخم بعض الناس بعضا أليست البساطة العربية أجمل وأحفظ لكرامة الانسان ؟ ان هذه البدعة مذلة لكرامة الفرد العربي ، تذله لانها تبعده عن تراثه وتاريخه ، وتذل ذهنه لانها تستحدث بدعة في قواعد لغته ، وتذله اخيرا لانه بها يأخذ عن الاجانب ما هو سقيم لا منطق وراءه بينما يترك من مأثوره ومألوفه ما هو طبيعي سليم .

***

والظاهرة (الثالثة) ان التجزيئية غلبت على الفكر العربي غلبة واضحة فأصبح الناس يحسبون أن اللغه ظاهرة منفصلة عن الاخلاق، وأن قضية فلسطين أمر لا يتصل ببناء المجتمع ، وأن العلم غير الدين والحرية غير الفكر ، وسبب ذلك ان الفكرة الغالبة على الذهن العربي العام فكرة تجزيء الظواهر والقيم ولا ترى الروابط الخفية بينها . ولذلك نجد الفكر العربي يلقي عبء هزيمتنا المشهرة في حزيران على الحكومات العربية وحدها ، معتقدا انه معفى من المسؤولية اعفاء تاما . وفي مقابل الفرد تعتقد الحكومات أن حل قضية فلسطين انما هو قضية عسكرية محضة . وانما الحقيقة ان معركتنا مع العدو الصهيوني يسأل عنها الفرد كما يسأل المجتمع ، ويسأل العسكري كما يسأل رجل الدين ، ويحاسب رجل القانون كما يحاسب رجل السياسة . والعالم مسؤول والمفكر ، وكلنا مسؤول . ولقد أضرّت بنا هذه الانفصالية الفكرية في حرب حزيران ضررا بليغا . ومع ذلك مضينا نسير في عين الطرق المنفردة المعزولة التي لا تلاقى .

وتنعكس هذه التجزيئية الواقعية في الأساس الفكري الذي يقوم عليه بناؤنا الاجتماعي . فان اغلب الناس يجهلون تماما ان اللغة التي يتكلمها مجتمع ما ، تتأثر تأثرا عظيما بالنظم الخلقية التي يدين بها ذلك المجتمع . ولقد طالما لفتت نظري تلك الظاهرة الجميلة التي ميزت الحياة العقلية في الجاهلية وصدر الاسلام : ظاهرة الايجاز المطلق . فقد كانوا يصوغون قوانينهم الخلقية في ما سموه بالحكمة. والحكمة مهما عظم معناها كانت تقال في اربع كلمات او خمس لا تزيد.

ومن هذه الكلمات القليلة تشع اعظم القيم الخلقية التي تميز بهـا اولئك البدو الحساسون كالمروءة والعفاف والنجدة ونصرة الجـار والصدق والكرم ، وغير ذلك من المثل الرفيعة . واليوم لا يحاول اي من مثقفينا ان يتفهم لماذا صاغ الجاهليون اعظم المعاني في البيـت الواحد المفرد من الشعر . بينما نصوغ اليوم المعنى نفسه في البيت الواحد من الشعر . انما نملك مسألة لغوية تتصل بأخلاق المجتمع. ذلك انه كان مجتمع عمل لا مجتمع اقوال . فكان الفرد لا يطيل فـي النص على القانون الخلقي وانما يركزه في كلمات قليلـة . وكانت تلك الكلمات تشع عشرات المعاني والظلال في نفس العربي . ويقوم جوهر هذه الظاهرة على ان المجتمع الذي يعمل بالمثل يميل الـى اختصار الكلمات التي يعبر بها عن تلك المثل . لان الكلمة الواحدة عنده صادقة صدقا كاملا فهي عنده قانون نافذ يعمل به دون تردد . اما المجتمع القوّال الذي يقول ولا يفعل فهو يميل الى صياغة المثل في أسطر كثيرة وفصول مسهبة ، يؤكد تلك المثل ويؤكدها لعله يؤثر في النفوس فيتبعونها . فكأن صانع معاني الاخلاق في عصرنا يتهم نفسه بعدم الصدق فيطيل ، ويتهم السامع بعـدم التنفيذ فيسهب ويفصل .

ذلك عندي سبب الايجاز المطلق في الحكمة العربية . فكانوا يؤمنون بأن ما هو مقدس يملك اشعاعا ذاتيا فلا يحتاج الى التطويل. وكان كمال البلاغة من كمال النفس . اما في المجتمع المعاصر حيث بات الفرد لا يعمل بالمثل الا نادرا فان قيمة الالفاظ قد كسدت كما تكسد العملة المتضخمة ، ومن ثم فان الفرد اصبح يستعمل مئات الكلمات في التعبير عن المعنى اليسير . ان الكلمة لم تعد عملا ولذلك لـم تعد لها هيبة .

ولسوف أجيء بمثل بسيط من حياتنا يرينا كيف تؤثر اخلاق الناس في اللغة التي يستعملونها . منذ سنوات علق احد المخازن على بابه لافتة نصها : «تنزيلات» اي تخفيض في الاسعار . وقد كانت النتيجة الطبيعية ان الناس ازدحموا على ذلك المخزن يبحثون عـن السلع الرخيصة . وسرعان ما سرى الهمس بين المشترين بأن المخزن لم يخفض الاسعار فاللافتة كاذبة . وشاعت هذه الحكاية في السوق وكانت فضيحة . فلم يعد أحد يقرب ذلك المخزن وسقطت كلمـة «تنزيلات» حتى ان مخازن اخرى اعلنت عن تنزيلات فلم يتحرك احد لدخولها . ان الكذبة هنا قد شوّهت اللفة ولطختها وافقدتهـا الصدق الطبيعي الكامن فيها . وحار اصحاب المخازن كيف يصنعون فما كان منهم الا ان علقوا لافتات جديدة نصها هذه المرة «تنزيلات حقيقية» . ولست اريد هنا ان اتحدث عن المذلة النفسية في هذه التسمية ، لانها في الواقع اقرار صريح بالكذب السابق . وانمـا المهم ان نستخلص المعنى اللغوي من هذه الواقعة .

ان الايجاز في الكلمة الاولى «تنزيلات» قد اصبح لا يغني لانه اخفى وراءه كذبة ، فأصبح لا بد من التطويل باضافة كلمة جديدة ما زال لها شرفها وبريقها هي كلمة «حقيقية» . وبذلك تضخمت اللغة. وكان التركيز والقصر ممكنا عندما كنا صادقين نعمل بما نقول ، فما كدنا نتحول الى قوّالين حتى اضطررنا الى الاسهاب وانما هذا مثال مصغر . وأية مقارنة بين ادبنا المعاصر والادب الجاهلي تسند مـا أذهب اليه وتدعمه .

***

والظاهرة (الرابعة) ظاهرة فكرية يلاحظها المتأمل متفشية فـي المجتمع . ومؤداها ان المواطن يعطي للمعتقدات قيمة مطلقة في ذاتها خلافا لما ينبغي له ، لان الفضائل في نظر كل بصير نسبية اذا مـا استعملناها في غير موضعها . مثال ذلك ان الكذب رذيلة مذمومـة في المقياس الخلقي ولكنه يصبح في بعض الحالات ضرورة نبيلة . فاذا اردنا ان نصلح بين اخوين متباغضين استطعنا ذلك بكذبة فاضلة نستعملها معهما فنقول لأحدهما ان اخاك يثني عليك ويمدحك وقـد سمعته بأذني . ثم نفعل مثل ذلك مع الأخ الثاني فسرعـان ما يلين قلباهما ويصطلحان فهذا كذب مباح لانه ادى الى اجتماع المتباغضين. ومثل هذا كثير معروف . ولكن المجتمع العربي لم يعد يفهم هـذه النسبية في القيم التي يؤمن بها . فالمواطن يتيه زهوا اذا وصفناه باحدى القيم المستحبة ويرتجف هلعا اذا ما نعت بقيمة معاكسة مما نبذه المجتمع . والواقع انه لا القيمة المستحبة مطلوبة في الحالات كلها ، ولا القيمة المستبعدة مرفوضة في الحالات كلها . ان الاطلاق صفة معارضة لكل قيمة من قيم المجتمع . والقانون اساسه النسبية وملاحظة الظروف والحالات .

ولنضرب من حياتنا الواقعية امثلة على هذه القيم . وأولهـا كلمة «حرية» فقد هام المواطن العربي اليوم هيامـا شديدا بلفظـة «الحرية» . وأرجو ان يكون واضحا انني قلت «هام بلفظة الحرية» ولم أقل هام بالحرية نفسها . لان حب الحرية يقتضي وعي معانيها في الحالات كلها . اما حب لفظتها فقد يؤدي بنا الى أن ندوس الحرية ونحن نبحث عنها . والنقطة الجوهرية ان يصل المواطن الى التمييز الواعي للحد الفاصل بين حريته الذاتية وحرية الآخرين في المجتمع. لان حرية الفرد مطلوبة الى الحد الذي لا يعارض سعادة المجتمـع العام . فاذا تأففت حريتي حرية فرد آخر اصبحت طغيانا وأغلالا، وعلى المجتمع في هذه الحالة ان يحارب هذه الحرية المزعومة .

ولنأت بمثل لاسلوب فهم الناس للحرية في بغداد . يقيم انسان من الناس حفلة زواج او مجلس حزن فيعتقـد ان من المباح له ان يأتي بمكبرة صوت تذيع حفلته في الشـوارع المجاورة كلها . فاذا احتج الجيران عليه صاح بهم «انا حر في بيتي اصنع ما اشاء» . ان هذا الاسلوب السقيم في فهم الحرية بغي وأذى على الجيران كلهم. لان مكبرة الصوت تسرق السكينـة من خمسين بيتا بلا استئذان . والناس يستأجرون بيوتهم ومن حقهم ان يجدوها ساكنة هادئة عندما يريدون ، فيقرأون او ينامون او يمرضون . تلك حريتهم . وانمـا العدل ان يقيد المجتمع حرية هذا الرجل الباغي المعتدي ويضع عليها الاغلال ضمانا لحرية الآخرين وهي حالة يصبح فيها التقييد افضـل من الحرية . بل هو تقييد مقدس يأمر به الله وتقره العدالة .

واللفظة الثانية التي اصبحت لها قداسة عظيمة في قلب المواطن العربي اليوم ، لفظة «التجديد» . فقد اطلقوا هذه اللفظة من كـل قيد وشرط ، وأغرموا بها اغراما شديدا . حتى اصبح كل جديـد أفضل من كل قديم دون تمحيص او تبين . وهذه فلسفة وبيلة ستقود مجتمعنا الى هاوية لسببين جوهريين احدهما سبب خاص والآخـر عام . أما السبب الخاص فهو يتعلق بظروف الامة العربية لان مجتمعنا يتحدّر من ماض أظلته حضارة عظيمة ذات قيم باهـرة لا يصح ان نتخلى عنه باسم التجديد . وأما السبب العام فهو يتعلق بطبيعـة التجديد نفسه . ذلك ان المرء قد يلاحظ ان نظام حياته بال سقيم لا نفع فيه فيجدده باقتباس نظام جديد افضل . وهذا تجديد طيب وفيه نفع للحياة الانسانية . ولكن هذا المجدد سرعان ما يهيم بالتجديد نفسه ويكف عن ملاحظة حاجته الى التجديد . وعند ذلك يدخل فـي مرحلة تالية ، فيندفع الى تغيير الجديد الذي اقتبسـه . يغيره سريعا قبل ان يؤتي اكله ويخصب حياته . وبذلك يصبح الهيـام بالتجديد قضاء على التجديد نفسه . اي انه لم يعد يرغب في النفع وانما أغرم بالتجديد .

ويبدو لي دائما ان معنى هذا شبيه بمعنى عجيب عرفته فـي طفولتي . فقد كان الاطفال يقولون لي : «كانت هناك حيتان فاختصمتا فراحت كل منهما تأكل ذنب الاخرى . ومضتا تأكلان حتى انتهت كل منهما من اكل الاخرى وماتتا جميعا» . وكان هذا الحديث يذهلني فلا ادرك اوله من آخره . وكنت احاول ان اتصـور حيتين ممدتين ممضوغتين جميعا فيتعب في ذلك ذهني الصغير الفج . وعندما كبرت بقي هذا المثال يعاود ذهني حتى فهمته فيما ارى من غرام المجتمـع العربي بالتجديد . فان تجديد التجديد ، وتجديد التجديد الثانـي

هو الحيتان اللتان اكلتنا بعضهما . وكما انه لا يمكن عقلا ان تأكل حية مأكولة حية اخرى أكلتها قبل ذلك كذلك لا يستقيم معنى التجديد في حياتنا اذا استمر الى ما لا نهاية له . فالتجديد ينبغي ان يحدث مرة واحدة ، ثم تليه اعوام طويلة مرتخية بطيئة يقلب فيها المجتمع ذلك الجديد ويهضمه ويستوعبه ويستخلص ثماره ويبدع منه قيما ذاتية من صنع نفسه . كما يقرأ المرء كتابا قيما ثم يبقى فترة يدرسه ويستوعبه ويعيشه فينتفع به اكثر مما ينتفع انسان آخر يقرأ كل يوم كتابا جديدا سرعان ما ينساه . ولا يخفى على احد ان امريكا هي البلد الذي هام فيه الناس بالتجديد . ولذلك اصبح شائعا في اوربا ان المجتمع الامريكي لم يأت بقيم عالية فليست له حضارة ذاتية حقة . وانما هو مجتمع يعيش لساعته ولا ينتج فكرا ولا مثلا .

ولنأت بمثل من التجديد المضر الذي داهم المجتمع العربي في السنوات الاخيرة . لقد طغى حب التجديد حتى على المصلحة الاجتماعية فراح الناس يغرفون من الغرب غرفا ، هادمين كل قيمة عربية في مقابل ذلك . الى درجة انهم ارادوا لنا ان نفقد شخصيتنا العربية كاملة فلا يبقى لنا من عروبتنا شيء . والواقع انهم قد غيروا حتى اسماءنا ونظامنا في التسمية وما من شيء الصق بالانسان من اسمه . لقد اصبحوا اليوم في نشرات الاخبار وفي الصحف ينادون الانسان باسم ابيه بدلا من اسمه الشخصي . فالرئيس جمال عبد الناصر ، اسمه جمال وكان علينا ان نقول : قال جمال وصرح جمال ، بينما نجدهم اليوم لا يسمونه الا عبد الناصر . والسيد عبد الناصر كما نعلم ويعلمون هو والد الرئيس جمال ، ولو كان الرجلان كلاهما في مكان وقلنا «يا عبد الناصر» لاجابنا هذا الرجل . اما ولده فقد سماه جمالا وليس له اسم غير هذا . وانما اراد قومنا التجديد على طريقة الغربيين الذين ينادون الانسان باسم ابيه وكان هذا التجديد غير منطقي ولا نافع . اما منطق الاشياء فيجعل اسم الانسان الصق به من اي اسم آخر . واما النفع فقد اضعناه لان نظامنا العربي في التسمية أدق وأصح أتراني لو قلت لكم «قال عبد الله» فهمتم انني اقصد محمدا رسول الله ؟ ولو قلت جاء زياد أيكون المقصود طارق بن زياد ؟ واذا جددنا نظام التسمية عندنا تجديدا أعمى ورضينا هذا الهوان أفلن نبت حياتنا المعاصرة عن حياة قومنا على صورة مضرّة ؟ ذلك ان التاريخ العربي سيكون كله قائما على نظام في التسمية بينما ينبني تاريخنا المعاصر في مسالك نظام جديد. وليت النظام الجديد كان افضل اذن لهان الامر ولكن ... لو ذات سوار لطمتني .

ان السبب النفسي الكامن وراء هذه الظاهرة هو ضعف الثقة بالنفس في المجتمع العربي ، فالناس يخوّن بعضهم بعضا باتهامهم بالرجعية ومعاداة التجديد . وأنا اسمع طائفة من الادباء يتشاتم افرادها على صفحات المجلات بهذه الالفاظ فيتهم الواحد منهم الاخر بها ويدلني هذا على ظاهرة ضاربة في نفسية المثقف العربي اليوم ، ظاهرة التمسك بالكلمات في مقابل الاستهانة بالقيم التي تمثلها تلك الكلمات . ذلك ان من كان مجددا وكان واثقا من ذلك لا يبالي ان يتهمه انسان بالجمود والرجعية . كما ان الشجرة الضخمة الباسقة تصمد للريح ولا تهابها بينما ترتعش لها الشجرة الهزيلة وتخشاها. وقد صوّر الاديب القصاص الامريكي ارنست همنغوي في رواية عظيمة له هذا المعنى فجعل بطلها يظن الناس يتهمونه بالجنون فلا يبالي ذلك ويقول لنفسه : «ماذا يهمني قولهم ؟ ما دمت ادري اني عاقل» . فهذه هي الثقة بالنفس وهي دليل على قوة الشخصية وثباتها على القيم. وانما يرتجف الناس في الوطن العربي من الالفاظ لانهم لا يثقون بانفسهم . ولعمري ماذا يضر السحابة البيضاء ان توصف بأنها سوداء ؟ ان حقيقتها هي البياض فلن تغيرها اتهاماتنا .

وقد يقول قائل : انما يرتعش الناس خوفا من تهمة الجمود لان الناس حولهم جهلاء يصدقون كل ما يسمعون ولا يملكون قدرة على الحكم المستقل . والجواب على ذلك ان تصديق الناس هو نفسه مظهر ضعف في الثقة بالنفس . فان الكلمات الباطلة لا ينبغي ان تلوّث الحقيقة . ولا يصير الباطل حقا الا في مجتمع عميت بصيرته. وانما يخاف الناس من التهم الباطله في المجتمع الأصم الذي قال فيه القرآن الكريم : «لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها، اولئك هم الغافلون» .

والواقع الذي لا مراء فيه ان تقديس الكلمات ظاهرة غير معروفة في الدول المتقدمة المثقفة . ففي فرنسا مثلا لا يعير اي انسان بأنه ليس مجددا . وسبب ذلك ان التجديد عندهم شائع مبذول حتى اصبح واقعا حيا ملموسا ولذلك لا نراهم يختصمون حوله . ولو قلنا للفرنسي انه لا يحب التجديد لما خطر له اننا نهينه كما يشعر المواطن العربي . والمعنى الحق لهذا اننا لم نحقق الفكر المجدد بعد وانما عانقنا الالفاظ ولبسنا القشور فلذلك نخاف الاتهامات .

ومن هذا كله يبدو لي ان المجتمع العربي اليوم مجتمع يغلب عليه الجهل والظلام . وأسباب ذلك ان اكثر من سبعين بالمائة من هذا المجتمع اليوم أميون مغمورون لا قيمة لهم سوى انهم قوى عمياء لها طاقة جسدية ينقصها ضياء العلم وبصيرة الادراك . والثلاثون بالمائة الباقية جلها متعلمون لا مثقفون . لان المثقف هو الذي يملك العلم ويملك فوق العلم ادراكا شخصيا ونورا عقليا يستنبط به المعاني ويهتدي به الى القيم . ان الثقافة بصيرة وروح . اما التعلم فهو حفظ المعلومات حفظا تصحبه عدم القدرة على الابداع . او ان الثقافة قدرة على الاجتهاد بينما التعلم جمود على المحفوظات ، والمثقفون هم الموجهون اما المتعلمون فاتباع . واغلب المتعلمين عندنا غير مثقفين الا اذا استثنينا قلة قد لا تزيد على الواحد في المائة . وهذه القلة مبددة ضائعة لاسباب كثيرة . فان بعض هؤلاء المثقفين شعوبيون ينكرون الامة العربية وتراثها . وبعضهم مخلصون للعروبة ولكنهم في ظلمات لانهم يدينون بالثقافة الغربية ويدعون الى الاخذ بها بكل قواهم . فلو اطعناهم لمسخت شخصيتنا الحضارية . وطائفة ثالثة من اهل الثقافة تملك العروبة ولا تملك الاخلاق ومن لم يكن له خلق عال ومثل وقيم ، فهو سقط لا نفع فيه للامة العربية . بل هو افساد للناس وشر ووبال . والثقافة في يده سلاح أثيم يجرحنا ويؤذينا .

ومع ذلك كله يبقى من المثقفين افراد يمكن ان نعدّهم حين نعد . فاين هؤلاء الافراد ولم لا يعملون ؟ الجواب انهم يضيعون في الخضم المتلاطم من الجهالة والتأخر ، يقولون فلا يسمع منهم احد ، ويصححون فتتبدد كلماتهم . ومن المستبعد ان تميز الكثرة الجاهلة الخير فيما يقوله اديب فذ او عالم حكيم . وانما الامم بأغلبيتها .

ومهما يكن من امر ، فان قدرة الاديب النموذجي على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اكبر من قدرة المثقف والمتعلم لسبب واحد هو ان الاديب حامل قلم مبدع يستطيع ان يغلف المثل بالسحر والعبير فتنفذ الى القلوب الصماء وتفتحها للضياء الغامر . والبلاغة سحر يجعلها تفتح اقفال القلوب المغلقة ، ولذلك نكلف الاديبَ بما لا نكلف به غيره من المهمات الشاقة في بناء المجتمع العربي . على ان يتذكر الاديب ولا ينسى ان قدرته وتميزه هو الايمان والاخلاق والعمل والعلم ، وغير ذلك من الصفات والمثل التي اشترطناها في الاديب في اول هذا البحث . وكم من قلم موهوب ينجح في هدم المجتمع وزعزعة قيمه .

وختاما ادعو الله العلي القدير ان يهبنا الاديب المصلح الباني والمجتمع الذي يقوم على اسس متينة من العلم والعمل والايمان ، ومن الله التوفيق .

نازك الملائكة